

فإنه لا يعني انعدام الانتقالات والتحويلات الصغيرة داخل المرحلة الواحدة، بل الأصح أن يقال إن كل واحدة من مجموعاتها تمثل تحولاً بالنسبة إلى الديوان السابق عليها. والأهم من ذلك أن أي نظرة من نغلاتها لا يمكن النظر إليها كما لو كانت انقطاعاً، بل هي في الحقيقة نمو طبيعي لما سبقها من نتاج، أو تحول أنتجه التراكم السابق له، بكل تأكيد.

لهذا، سوف أقسم دراسة موروثها إلى شطيرتين. أما أولهما فتتناول مجموعاتها الثلاث الأولى، وتحاول أن تقرأ فيها مجرد قراءة تبتغي التعرف على المحمولات النفسية للشاعرة، وأما ثانيتهما فسوف تحاول أن تصدر شيئاً من أحكام القيمة على مجموعاتها الثلاث الأخرى، إذ إن هذه المجموعات أقدم من المجموعات الأولى على الصمود في وجه النقد الباحث، عن جودة التعبير والعمق في التجربة، فضلاً عن أن الشاعرة، في هذه المرحلة الثانية تخرج من قوقعتها الذاتية كيما تلتقي بقارئها على فسحة لها شيء من السعة، مما يمكن القارئ نفسه من الاقتراب والاحتكاك بنتائجها دون كبير تضجر من قنامة الذاتية الخالصة المعنفة في التهويم.

أولاً: المرحلة الأولى

ما من حاجة إلى مصدر خارجي كيما يؤكد الناقد على ما فحواه أن السمة الأبرز للمرحلة الأولى من شعر فدوى طوقان هي التمرکز حول الأنا، أو الاتجاه الدائم نحو الداخل المشروح، الشيء الذي يجعل للقصيدة، دواماً، بطلاً واحداً هو في الغالب الشاعرة نفسها، ولا بد من أن يكون هذا التمرکز مؤسساً على شروط موضوعية ارتطمت بها دوافعها الروحية فشكلت ما ألقت الشاعرة نفسها أن تسميه «الفيود» و«الحدود»، وغير ذلك من الألفاظ الدالة على مثل هذا المعنى.

دعنا ابتداءً نضع إصبعنا على المفردات الأكثر تواتراً في مجموعاتها الثلاث الأولى، وهذه هي مرتبة ضمن فصائل متقاربة الجزئيات وذات دلالة:

- ١ - شجي. يأس. شوق. كئيب. ذكريات. تنهد. توجع. دموع. مجهد.
- ٢ - غربة. وحشة. عزلة. وحيد. متوحد. منفرد. توحد. اغتراب. ضياع. توحش. وحدي. موحشي. ضائع. عزلة. غربة.
- ٣ - قلق. كبت. مكبوت. محروم. تصارع. صراع. خنق. ذعر. خوف. رعب. اختناق.
- ٤ - قيود. سدود. حدود. سجن. يقيد. يسجن. طوق. سجين. قفل. أصفاد. وثاق. حبس. حبس. موصد. مشدود. ملجم. أسر. أوصد. أغلال. أطواق.
- ٥ - حائرة. حيرة. تيه. تائهة. مستبهم. غامض. حيارى. توهان. غيب. غموض. خفاء. جهل. مجهول. لغز. سر. مبهم. يختفي. يغيب. يتوارى.
- ٦ - صمت. سهوم. وجوم. سكون. تخشع. شرود. بكاء. خرساء. أصم. صموت. سكوت.